مركز الحوار السوري
Syrian Dialogue Center

عام من الصمود ... كيف أتمّ اتفاق موسكو عامه الأول دون أن ينهار؟

قراءة في العوامل وسبل استدامتها

ورقة تحليلية صادرة عن وحدة تحليل السياسات

في مركز الحوار السوري

مركز الحوار السوري

مؤسسة أهلية سورية تهدف إلى إحياء الحوار وتفعيله حول القضايا التي تهم الشعب السوري، وتسعى إلى توطيد العلاقات وتفعيل التعاون والتنسيق بين السوريين.
أعلِن عن تأسيس مركز الحوار السوري أواخر 2015م عقب عدة فعاليات حوارية في الشأن السوري.
يتكون المركز من ثلاث وحدات موضوعية: وحدة الهوية المشتركة والتوافق، ووحدة تحليل السياسات، والوحدة المجتمعية.

إعداد وإشراف: د. محمد سالم
ساهم في العمل: أحمد سامر ايبش

وحدة تحليل السياسات

28 رجب 1442 هـ - 12 آذار/مارس 2021 م

جميع الحقوق محفوظة لمركز الحوار السوري - 2020 م

مقدمة:

بدأت الحملة العسكرية الأخيرة التي شنَّتها قوات نظام الأسد والميلشيات الداعمة له تحت الغطاء الجوي الروسي على محافظة إدلب شمال غرب سوريا أواخر عام 2019م، واستمرت حتى 5 مارس من عام 2020م؛ حين وقَّع الطرفان الروسي والتركي اتفاقاً يقضي بوقف إطلاق النار وإنشاء منطقة آمنة على طرفَي الطريق الدولي "M4" والبدء بتسيير دوريات روسية-تركية مشتركة عليه بدءاً من منتصف آذار/ مارس من العام نفسه[1].

كان هذا التفاهم "الهشّ" -حسب وصف كثير من المراقبين[2]- نهايةً لواحدة من أعنف الحملات العسكرية التي شنَّتها قوات نظام الأسد والمليشيات الداعمة له تحت الغطاء الجوي الروسي، وقد أشارت بنوده المقتضبة وابتعاده عن الخوض في التفاصيل الدقيقة إلى طبيعة كونه اتفاقاً بُني على عجل؛ يرمي إلى الحد من انزلاق الأوضاع العسكرية المتأزمة وتحوُّلها إلى حرب مفتوحة بين الطرفَين، خصوصاً بعد إطلاق القوات التركية عملية "درع الربيع"[3]، والتي استهدفت فيها عشرات المواقع التابعة لنظام الأسد في محافظة إدلب وكبدته خسائر كبيرة في الأرواح والعتاد، وأسهمت في الحد من تقدُّمه العسكري في المنطقة، وذلك بعد تعرُّض نقطة عسكرية تركية إلى قصف جوي أدى إلى سقوط عدد من الجنود الأتراك[4].

ويبدو أن عدداً من العوامل المركبة أسهمت بشكل مباشر أو غير مباشر في الصمود النسبي لهذا الاتفاق والحفاظ عليه على غير العادة، على الرغم من الخروقات والتصعيدات العسكرية المتكررة التي أشعرت الكثيرين بقرب انهياره[5]، ولاحتوائه كذلك على الأسباب الموضوعية ذاتها التي أدت إلى انهيار التفاهمات السابقة بين الطرفين في إدلب[6]، وكان يُتعامَل معها بمبدأ الترحيل وتأجيل النقاش حولها إلى جولات أخرى من المفاوضات.

وقد خلَّفت تلك العمليات العسكرية وراءها واحدة من أكبر موجات النزوح في سوريا منذ العام 2011؛ حيث اضطر مئات الآلاف من السوريين إلى ترك مدنهم وقراهم هرباً من عمليات القصف والتدمير الممنهج التي شنَّها الطيران الروسي جوّاً، وعمليات القتل العشوائي التي نفّذته مليشيات وقوات نظام الأسد برّاً[7]. كما أسهمت في إضعاف فصائل المعارضة المسلحة واستنزافها إلى حدّ كبير؛ فقد خسرت جرّاء المعارك المتواصلة على مدى شهور عدداً كبيراً

---

[1] الحرب في سوريا: اتفاق روسي تركي على وقف إطلاق النار في إدلب، 2020/3/5، bbc.

[2] الورقة التحليلية" مستقبل إدلب في ضوء تفاهم موسكو: المآلات وآليّات التعامل"، 2020/4/5، مركز الحوار السوري.

[3] تركيا تطلق على عملية إدلب اسم "درع الربيع"، 2020/3/1، وكالة الأناضول.

[4] مقتل 33 جندي تركي في سوريا: كيف ردت أنقرة على الهجوم؟، 2020/2/28، bbc.

[5] عيسى سميسم، بوادر انهيار اتفاق إدلب، 2020/8/9، العربي الجديد.

عامر السيد علي، اتفاق وقف إطلاق النار في إدلب يزداد ضعفاً.. والفصائل مستعدة للاحتمالات، 2020/10/21، العربي الجديد.

[6] من ذلك مثلاً التباين في الموقف من التعامل مع معضلة "هيئة تحرير الشام" والتنظيمات المتطرفة الأخرى، إضافة إلى الاختلاف حول بند فتح الطرقات الدولية. يمكن الرجوع إلى: إسكات البنادق في إدلب السورية، 2020/5/15، مجموعة أزمات، ص9.

[7] بلغ عدد النازحين من الحملة الأخيرة ما يقارب 700 ألف بحسب تقديرات الأمم المتحدة، ليتجاوز العدد المليون نازح نتيجة الحملات التي بدأت من شباط 2019 حتى آذار 2020. الأمم المتحدة: موجات النزوح بشمال غربي سوريا هي الأسوأ منذ 2011، 2020/2/11، الجزيرة. الاتحاد الأوروبي: أكثر من مليون نازح من إدلب خلال عام، 11 شباط 2020، وكالة الأناضول.

من المقاتلين، وتقلصت مساحة سيطرتها إلى مستويات غير مسبوقة بعد قضم نظام الأسد لمساحات واسعة ومدن استراتيجية.

وبناءً على ما سبق تبرز أهمية البحث في طبيعة العوامل التي أدت إلى الصمود النسبي لوقف إطلاق النار حتى هذا اليوم، وللدفع في اتجاه استدامته على المدى المتوسط في انتظار الوصول إلى التسويات النهائية بين الأطراف الكبرى، وذلك بهدف إيقاف الاستنزاف الإنساني الهائل، وإطالة فترة الهدوء والتقاط الأنفاس في محاولة لتأمين القَدْر الأدنى من الاستحقاقات والمكاسب لقوى الثورة والمعارضة ضمن التسويات النهائية للقضية السورية.

تسعى هذه الورقة إلى محاولة استقصاء العوامل التي رسخت التهدئة حتى الآن، وصولاً إلى محاولة استشراف مآل هذا الاتفاق، ومصير المناطق الواقعة تحت سيطرة قوى الثورة والمعارضة والنفوذ التركي.

إدلب؛ اتفاقات متكررة ولا ثابت إلا الصراع:

منذ مؤتمر "أستانا4" عام 2017م وتوقيع اتفاق "خفض التصعيد" بين الدول الراعية لمسار أستانا، روسيا وتركيا وإيران، شهدت محافظة إدلب جولات متتالية من الحملات العسكرية رغم وجود فترات متقطعة من الهدوء النسبي، ومع انتهاء نظام الأسد وحلفائه من استعادة السيطرة على المناطق المحاصرة في ريف حمص وريف دمشق، وتكراره سيناريو التهجير الممنهج لمعارضيه وعوائلهم نحو الشمال السوري؛ توجهت أنظار الفرقاء الثلاثة نحو محافظة إدلب، وبدأت قوات نظام الأسد وحلفائه بالتحشيد على أطراف أرياف حماة الشمالية وأرياف إدلب، في تصعيدٍ جديدٍ دفعَ رؤساء الدول الضامنة إلى الجلوس على طاولة المفاوضات في طهران[8].

لا يُخفي نظام الأسد ولا داعموه رغبتهم المستمرة باستعادة السيطرة على كامل الأراضي السورية، كما لا يتوانى الروس والإيرانيون في دعم حليفهم وقواته على الأرض في تنفيذ هذه الرغبة[9]، ولكنّ تركيا أعلنت من جهتها في مناسبات متعددة عن الأهمية الإستراتيجية لمحافظة إدلب بالنسبة إليها، وضرورة تجنُّب إراقة الدماء وعدم التسبب بمأساة إنسانية كبرى[10]، وبين هذه المواقف المتباينة رزحت المحافظة تحت شبح المعارك وموجات النزوح خوفاً من اشتعالها وهرباً من القصف الجوي.

نجحت الجهود الدبلوماسية التركية في الوصول لاتفاق وقف إطلاق النار مع روسيا تم توقيعه في "سوتشي" منتصف أيلول 2018م، كرَّس اتفاق منطقة خفض التصعيد، ونصَّ على إقامة منطقة منزوعة السلاح على خطوط التماس، تتولى أنقرة فيها إفراغها من الجماعات المتطرفة والأسلحة الثقيلة، كما أكد ضرورة فتح الطريقين

[8] خلاف بين روسيا وإيران وتركيا بشأن مصير إدلب السورية، 2018/9/7، bbc.

[9] سوريا: روحاني وبوتين يشددان على حق دمشق في استعادة إدلب وأردوغان يدعو إلى وقف إطلاق النار، 2018/9/7، فرانس 24.

[10] أردوغان يدعو لعدم إزهاق الأرواح في إدلب، 2018/9/7، وكالة الأناضول.

الدوليين "M4" و "M5" ومحاربة "الإرهاب"[11]، تلا هذا الاتفاقَ لقاءٌ رباعيٌّ في إسطنبول شدَّد على أهمية استدامة وقف إطلاق النار والاستمرار بأعمال "اللجنة الدستورية" التي دعت إليها موسكو بشدة[12].

استطاع هذا الاتفاق أن ينزع فتيل المعارك مؤقتاً مع بقاء حالة الخروقات المتنوعة والهجمات الجوية، وقد اتخذت موسكو من قضية وجود التنظيمات المصنفة إرهابياً ذريعة مستمرة لنقض اتفاقاتها المبرمة مع أنقرة، وفتح المجال أمام قوات الأسد لشنّ الهجمات العسكرية لاستعادة السيطرة على المنطقة، على الرغم من انتشار عدد من النقاط التركية وفق اتفاق خفض التصعيد، وكانت الصيغ الفضفاضة الغامضة التي وسمت بنود الاتفاق تعكس حقيقة عدم التوافق بين الأطراف، وهو ما أبقى المجال مفتوحاً لخرق الاتفاق بشكل مستمر من قبل الروس بذريعة عدم التزام تركيا واستمرار وجود "التنظيمات الارهابية" كلما لاحت لها الفرصة مع تغير موازين القوة[13]، لتعود المعارك إلى الاشتعال مرة أخرى منتصف عام 2019م.

لتخسر قوات المعارضة مزيداً من المناطق والمدن، أبرزها خان شيخون[14]، ثم ليتجدد مسلسل قضم المناطق من قبل قوات النظام بعد هدنة قصيرة، ليقضم مناطق ومدناً جديدة مثل معرة النعمان وكفرنبل وسراقب في الحملة الأخيرة[15]، ولتتغير إثر ذلك خريطة السيطرة بشكل كبير، قبيل مرحلة التدخل الحاسم من قبل القوات التركية، الذي أوقف تقدُّم قوات نظام الأسد وثبَّت قواعد جديدة للاشتباك في المنطقة.

وإذا أردنا مما سبق أن نلخص أسباب انهيار الاتفاقات المتكررة في إدلب جازَ لنا القول: إن السبب الأساسي يكمن في عدم الرغبة الحقيقة في الالتزام بها من قبل موسكو، فضلاً عن غياب الاتفاق الحقيقي على أهم القضايا العالقة بين الطرفَين في الوقت الذي تتطلع فيه موسكو لأن تكون صاحبة القرار الأعلى عسكرياً وسياسياً في سوريا، وبالتالي دعم رغبة النظام المعلنة باستعادة السيطرة على كامل سوريا[16]، مما يؤهلها لفرض رؤيتها حول الحلول النهائية للأزمة، و بالطبع تمرر موسكو هذه الرغبة تحت ادعاءات "مكافحة الإرهاب" وحماية مصالحها التي تتعرض للتهديد

---

[11] سوريا: ما هي بنود اتفاق إنشاء منطقة منزوعة السلاح بإدلب؟، 2018/9/17، bbc.

[12] قمة إسطنبول تدعو لإعادة كتابة الدستور السوري، 2018/10/27، الجزيرة.

[13] يُشار عادةً إلى هذا النوع من الاتفاقيات الدولية بمسمى "الغموض البنّاء"، وهي من قبيل العبارة المشهورة "اتفقنا على ألا نتفق"؛ فلا يكون سبب ترك هذه الاتفاقيات على قدرٍ من العمومية هو صعوبة التوصل إلى كلمات وعبارات أكثر دقةً وتحديداً؛ بقدر ما يكون مبنياً على تباين شديد في المواقف السياسية والمصالح، وعدم القدرة على التوصل إلى اتفاق محكم بين الأطراف المتفاوضة، مما يفضي إلى بنود عمومية مطاطة تبقى قابلة لتعدد التفسيرات بحسب رأي كل طرف، ليحسمها الطرف الأقوى على الأرض، وهو ما تكرر في حالة الاتفاقات الإسرائيلية مع السلطة الفلسطينية؛ يمكن الرجوع للمقالة التالية:

Michael Byers, Still agreeing to disagree international security and constructive ambiguity, 14/5/2020.

[14] إدلب.. قوات النظام تسيطر على خان شيخون وتحاصر نقطة مراقبة تركية – 23 آب 2019- الجزيرة.

[15] سيطرت قوات نظام الأسد بدعم روسي على حوالي 250 قرية وبلدة في أرياف إدلب وحماة وحلب في الحملة الأخيرة. هجوم إدلب. كيف توسعت رقعة النظام وانحسرت المعارضة، 8 آذار 2020، المدن.

[16] تظهر هنا مفارقة مهمة للغاية: وهي أن روسيا في سعيها هذا لاستعادة السيطرة على كامل الجغرافيا السورية تتحرك ضمن وعيها بالتوازنات القائمة اليوم في سوريا؛ فعلى الرغم من كون منطقة شمال شرق سوريا هي الأغنى والأهم من ناحية الثروات في سوريا إلا أن روسيا تدرك أن حظوظها هناك محدودة للغاية، خصوصاً مع الخطوط الحمراء الواضحة التي حددتها الولايات المتحدة الأمريكية، والتي كانت ترجمتها العملية الضربة الأمريكية لمرتزقة "فاغنر" حينما حاولت الاقتراب من أحد حقول النفط، وبالتالي ترى روسيا في منطقة إدلب خاصرة ضعيفة يمكن قضمها، على عكس مناطق شمال شرق سوريا.

في سوريا من قبل "الجماعات الإرهابية"[17]، إضافة إلى اتهام أنقرة بعدم الوفاء بتعهداتها حول القضاء على الإرهاب وتفكيك "هيئة تحرير الشام"[18].

في المقابل يبدو أن صانع القرار التركي يميل للاعتقاد أن عملية تفكيك "هيئة تحرير الشام" مكلفة عسكرياً وخطيرة من ناحية المآلات على المنطقة؛ إذ إن إجراءً كهذا قد يتسبب بانفلات الوضع الأمني وتسرُّب عدد كبير من المقاتلين المتشددين مع موجات النزوح واللجوء[19]، يضاف إلى ذلك عدم ثقة الأتراك بنوايا وجدية موسكو في إيقاف الهجمات إذا ما قامت الأولى بتفكيك "هيئة تحرير الشام"، خصوصاً وأن موسكو لا تميز كثيراً بين المعارضة المعتدلة وغير المعتدلة، إضافة إلى دعمها المفتوح لرغبة نظام الأسد باستعادة كامل السيطرة على جميع الأراضي السورية، باستخدام ذريعة وجود "هيئة تحرير الشام" أو بذرائع أخرى.

درع الربيع و اتفاق موسكو؛ ما الجديد الذي أطال عُمر التهدئة؟

استمرَّ التوتر الروسي التركي في التصاعد مع اشتداد الحملة العسكرية لقوات نظام الأسد وحلفائه أواخر 2019م وبداية 2020م، وكررت أنقرة تشديدها على ضرورة توقف العمليات العسكرية وإلزام قوات النظام والميليشيات المساندة له بالعودة إلى خطوط اتفاق سوتشي، الأمر الذي لم تستجب له روسيا ولا حلفاؤها؛ مما أدى إلى تفاقم الأوضاع من الناحية العسكرية، وإلى تعزيز الشعور التركي بعدم مبالاة الطرف الروسي لمصالحها في إدلب.

في مواجهة ذلك أدركت أنقرة أنه لابد من إحداث تغييرات في المشهد العسكري تضمن لها مصالحها بعد تعطيل فاعلية نقاطها العسكرية في ريف حماة الشمالي وريف إدلب الشرقي؛ جرّاء حصارها من قبل قوات نظام الأسد، فبدأت مطلع 2020م بتوجيه أرتال عسكرية إلى مناطق خارج تلك المنصوص عليها ضمن اتفاق سوتشي[20]، وأطلق الرئيس التركي حينها تهديداته لقوات الأسد بضرورة التوقف والتراجع إلى حدود اتفاقية سوتشي، معطياً مهلة مدتها شهر حتى نهاية شباط من العام ذاته[21]، وذلك بعد تعرُّض جنود أتراك لقصف مدفعي من قبل قوات نظام الأسد

[17] اتهمت موسكو مراراً "هيئة تحرير الشام" بتنفيذ هجمات بطائرات مسيرة على قاعدة "حميميم الجوية"، كما أنها استثمرت مراراً اتهاماتها لـ "هيئة تحرير الشام" بالتحضير لتنفيذ هجمات كيماوية على قوات النظام أو المدنيين وإلصاق التهمة بـ "الحكومة السورية". للمزيد يُنظر:
روسيا تعلن عن إحباط هجوم على قاعدة حميميم، 2020/1/19، روسيا اليوم. ويُنظر أيضاً: المقال التحليلي "قراءة في الاتهامات الروسية المستمرة للمعارضة السورية باستخدام السلاح الكيماوي"، 2020/11/11، مركز الحوار السوري.

[18] روسيا تحمل تركيا المسؤولية عن تصعيد التوتر شمال غرب سوريا، 2020/2/12، روسيا اليوم.

[19] إسكات البنادق في إدلب السورية، 2020/5/15، مجموعة أزمات، ص12 و13.

[20] رتل تركي يضم دبابات يثبت نقطة تمركز جديدة على الاوتستراد الدولي جنوب سراقب، 2020/1/28، شبكة شام؛ وتعتبر هذه النقطة العسكرية أول نقطة تركية جديدة يتم تثبيتها في محافظة إدلب منذ الانتشار القديم وفق اتفاقية أستانة، وذلك بعد دخول نقاط مورك ثم تل الصرمان ضمن مناطق نفوذ قوات النظام، واقترابه من محاصرة النقطة الأخرى في معرحطاط.

[21] أردوغان يمهل النظام شهراً للانسحاب خلف نقاط المراقبة بإدلب، 2020/2/5، وكالة الأناضول.

ردّت عليه تركيا باستهداف مباشر لمواقع نظام الأسد في أكثر من موقع؛ معلنةً بذلك تغيير قواعد الاشتباك وعزمها مهاجمة قواته بشكل أكبر إذا تعرض جنودها للخطر[22]، طالبةً من موسكو عدم الحيلولة بينها وبين قوات الأسد[23].

مع تصاعد العمليات واستمرار التقدم من قبل قوات نظام الأسد كثّفت تركيا إرسال الأرتال العسكرية إلى نقاط جديدة على حدود التماس، ثم انفجر الوضع بعد تعرُّض قوات تركية للقصف في جبل الزاوية سقط على إثرها العديد من الجنود الأتراك[24]، فسارعت موسكو إثر ذلك إلى تبرير الهجمات مجدداً[25]، لتقوم تركيا بنفي التصريحات الروسية وإطلاق عملية درع الربيع؛ التي كبّدت قوات النظام والميلشيات المساندة له خسائر كبيرة في العتاد والأرواح، وأنذرت بتفجُّر الأوضاع بين روسيا وتركيا، مما دفع البلدين إلى توقيع مذكرة موسكو التي جمَّدت خيار الحسم العسكري، وفرضت هدنة ما تزال قائمة حتى اليوم.

أعلن الطرفان الروسي والتركي عزمهما على إنفاذ الاتفاق، وقاما بتسيير أول دورية مشتركة في 15 آذار/ مارس[26] رغم غياب الاتفاق حول المسائل التفصيلية على الأرض؛ في إشارةٍ لجدّية الطرفَين في ضرورة الالتزام بوقف إطلاق النار، وعلى الرغم من توقف الدوريات المشتركة لاحقاً، وزيادة التصعيد الروسي من خلال الغارات الجوية. يمكن القول: إن عوامل موضوعية معينة كرّست منع اجتياح جديد لقوات نظام الأسد بدعم روسي، أبرزها:

1) تغيُّر ميزان القوى وقواعد الاشتباك بعد التدخل التركي المباشر إلى جانب المعارضة:

لم تكن العمليات العسكرية للقوات التركية ضد قوات نظام الأسد وحلفائه مجرد ردود بسيطة بعد تعرُّض جنودها للخطر والقتل؛ فقد مثَّل هذا التحوُّل العسكري فاتحةً لتبدُّل في قواعد الاشتباك وإيذاناً ببدء مرحلة جديدة من مراحل الصراع في إدلب شمال سوريا، وهو ما تمثل في الإعلان بشكل رسمي عن عملية درع الربيع ضد قوات نظام الأسد، وكان لافتاً النشاط الواضح للطائرات التركية المسيرة في إضعاف قوات النظام على الأرض[27]، وقد أسهمت القوات التركية على الأرض كذلك في عمليات القصف والتمهيد لاقتحام عناصر المعارضة بعض المناطق المهمة التي خسرتها[28].

---

[22] المرجع السابق نفسه.

[23] كانت موسكو قد برّرت مهاجمة قوات النظام للنقطة التركية بحجة أن القوات التركية تحركت بشكل منفرد وخارج اتفاقية سوتشي، لترد تركيا على ذلك بالنفي، معلنةً أنها كانت قد نسقت مع القوات الروسية قبل اتخاذ تلك الإجراءات؛ مما رفع من حدة التوتر بين الطرفين، ثم خرج الرئيس التركي ليؤكد جدية وعزم بلاده على إيقاف تقدم قوات النظام، مرسلاً إشارات إلى الحكومة الروسية يضمن فيها عدم التعرض للقوات الروسية. للمزيد: أردوغان: قواتنا تواصل الرد على قصف النظام السوري لجنودنا، 2020/2/3، وكالة الاناضول.

[24] مقتل العشرات من الجنود الأتراك في غارة على إدلب السورية ومخاوف أممية من تصعيد القتال، 2020/2/28، فرانس 24.

[25] لا يعتقد أن قوات النظام قامت باستهداف الجنود الأتراك دون علم القيادة الروسية، ولذلك قد يكون الضوء الأخضر الذي أعطته روسيا للنظام محاولة روسية لإرسال رسالة إلى أنقرة تكشف عن حجم مخاطرتها في إدلب، مما يدفعها إلى الانسحاب أو الوقوف موقف الحياد؛ آخذةً روسيا بالحسبان التوازنات داخل تركيا بين الحكومة والمعارضة، وكذلك شعور أنقرة بالخذلان بسبب موقف واشنطن والاتحاد الأوروبي البارد تجاه الوضع في إدلب.

[26] تسيير أول دورية تركية روسية مشتركة على طريق "إم4" بإدلب، 2020/3/15، وكالة الأناضول.

[27] وزير الدفاع التركي: "درع الربيع" بإدلب تتواصل بنجاح وفق المخطط لها، 2020/3/3، وكالة الأناضول.

[28] المعارضة السورية المعتدلة تستعيد "النيرب" بإدلب، 2020/2/24، وكالة الاناضول.

هذا الدخول الصريح في المعارك مع قوات النظام رافقه كذلك دعم لقوات المعارضة ببعض الأسلحة النوعية، مثل مضادات الطائرات المحمولة على الكتف، والتي أسفرت بدورها عن إسقاط عدد من الطائرات والمروحيات التابعة لنظام الأسد. وفي تطوُّرٍ لافتٍ يشبه "إعلان الحرب" قامت وزارة الدفاع التركية بتبنّي إسقاط هذه الطائرات[29]، وقامت "وكالة الأناضول" الرسمية التابعة للحكومة التركية أيضاً بإطلاق وصف "المجموعات الإرهابية"[30] على الميليشيات الإيرانية الداعمة لقوات النظام، مما يدل على التغيُّر الحادّ في الموقف تجاه قوات النظام وحلفائه.

ورغم التكهنات العديدة جرّاء قيام تركيا لاحقاً بسحب نقاطها العسكرية التي كانت واقعة ضمن نفوذ قوات النظام في ريف حماة الشمالي وريف إدلب الجنوبي[31]؛ فإنه بدا تقويةً للنقاط التركية الأخرى الواقعة على حدود التماس مع قوات النظام كخطوط دفاع. وبعد هدوء المعارك وبدء سريان وقف إطلاق النار عزّزت أنقرة من وجودها العسكري وخطوط الدفاع في إدلب، وكذلك حرصت تركيا على اجتماع قوات المعارضة المسلحة ضمن ألوية عسكرية منظَّمة تحت قيادة مجلس عسكري[32]، لتسهيل عملية التنظيم والمقاومة في حال استئناف العمليات العسكرية من قبل قوات النظام، ولم تستثنِ منه أحداً من الفاعلين وأصحاب النفوذ على الأرض في إدلب، ودون هيمنة فريق بعينه[33].

كل التطورات العسكرية السابقة تلقي بظلالها مباشرة على أي قرار روسي محتمل لاستئناف العمليات العسكرية مجدداً في إدلب، وتفرض معادلة جديدة على الأرض تدرك معها روسيا وقوات النظام أن التكلفة العسكرية والسياسية لأي هجوم قادم لن تكون كسابقاته، وبالتأكيد لا تروق التفاهمات الروسية التركية بعد مذكرة موسكو

---

[29] الجيش التركي يعلن إسقاط مقاتلتين للنظام السوري، 2020/3/1، وكالة الأناضول.

[30] إدلب.. مقتل 34 إرهابيا من الميليشيات المدعومة إيرانيًا، 2020/2/22، وكالة الأناضول.

جثث عشرات الموالين لإيران تصل دير الزور إثر مقتلهم شمالي سوريا، 2020/2/14، وكالة الأناضول.

[31] جاء هذا الانسحاب بعد عدد من اللقاءات بين الوفود الروسية والتركية في كل من موسكو وأنقرة، طلبت فيها روسيا من الحكومة التركية بشكل واضح سحب جميع قواتها جنوب الطريق الدولي وتخفيض حجم قواتها في إدلب، فجاء الرد التركي الأولي بالرفض، وبعد عدد من التوترات والمظاهرات المدفوعة من قبل النظام حول النقاط التركية بدأت تركيا بسحب نقطة مورك، ثم أتبعت ذلك بسحب عدد آخر من النقاط. وقد اختلفت التفسيرات حول هذه التحركات التركية؛ فهذه النقاط رغم تعطيل فاعليتها العسكرية وكونها خاصرة رخوة ضمن سيطرة قوات النظام إلا أنها كانت ورقة تظهر تمسك الحكومة التركية باتفاق سوتشي، وقد ربط البعض بين سحب هذه النقاط والتوتر الروسي التركي في ليبيا.

يُنظر: فراس فحام، دوافع ودلالات انسحاب النقاط العسكرية التركية في إدلب، 2020/10/21، مركز جسور للدراسات.

عسكرياً يمكن القول: إن الانسحاب قلّل من فرص النظام وحلفائه بالضغط على الحكومة التركية، وأعطى للقوات التركية القدرة على التجمع في نقاط أكثر أهمية من الناحية العسكرية والاستراتيجية في جبل الزاوية، وبحسب آراء محللين وقادة ميدانيين فإن هذا الانسحاب وإعادة التموضع في مناطق جبل الزاوية وجنوب الطريق الدولي كان أشبه بعملية مقايضة بين الطرفين؛ تنسحب تركيا من نقاطها الموجودة دخل المناطق التي يسيطر عليها النظام، وبالتالي ضمنياً تجاوز اتفاقية سوتشي، في مقابل تعزيز وجودها جنوب الطريق الدولي، وذلك بعد أن كان اتفاق موسكو ينصّ على وجود القوات الروسية جنوب الطريق الدولي؛ الأمر الذي يبدو أن موسكو قد تخلت عنه مؤقتاً بموجب الصفقة السابقة.

[32] محاولات للتوصل إلى مجلس عسكري موحد في إدلب، 2020/11/1، عنب بلدي.

[33] وفي تصريح لـ"العربي الجديد"، قال القيادي في "لواء المعتصم" ضمن "الجيش الوطني السوري"، مصطفى سيجري، إنّ المجلس العسكري الجديد هو "محاولة لتوحيد كل القوى العسكرية في إدلب بهدف ترتيب البيت الداخلي، وإبعاد الشخصيات المدرجة على لوائح الإرهاب الدولية، وقطع الطريق أمام الذرائع الروسية بأن المنطقة حاضنة لهيئة تحرير الشام المدرجة على قوائم الإرهاب"، عدنان أحمد، مجلس عسكري جديد لفصائل إدلب بعيداً عن هيمنة الجولاني، 2020/10/31، العربي الجديد.

للنظام وحلفائه من الميلشيات الإيرانية؛ إلا أنهم يعلمون مغبّة الإقدام على شنّ هجوم جديد بشكل منفرد بعيداً عن التغطية الجوية الروسية[34]، أو مع التدخل الجوي التركي إلى جانب قوات المعارضة[35].

من جانبها تدرك روسيا أيضاً ارتفاع التكلفة العسكرية لأي عمل محتمل قائم في إدلب؛ لذلك تحاول الضغط الآن من خلال بعض الأوراق التي تملكها، مثل ابتزاز الحكومة التركية بملف "هيئة تحرير الشام" والجماعات المتطرفة الأخرى، أو عن طريق رفع عتبة التصعيد العسكري بشكل جزئي من خلال الغارات الجوية لتقوية فرص التفاوض، أو حتى المضايقات المباشرة للنقاط التركية كما فعلت مع تلك التي كانت محاصرة من قبل قوات النظام. ولكن روسيا ستجد صعوبة كبيرة فيما يتعلق بالذهاب نحو خيار الحسم العسكري، وقد تضطر إلى نشر قوات برية تقليدية والمشاركة في القتال بشكل مباشر إذا ما أرادت خلط الأوراق وتحييد القوات التركية عن المشاركة في عملية الدفاع عن إدلب، أو الانزلاق نحو مواجهة شاملة بين الطرفين[36].

2) الرغبة الروسية بعدم التصعيد العنيف مع تركيا:

إلى جانب ملفات أخرى في سوريا[37]وخارجها أيضاً، يبدو أن روسيا تعوّل على التفاهم مع الطرف التركي منذ بدء التقارب بُعيد محاولة الانقلاب الفاشلة في تركيا، وتعتبر روسيا الحكومة التركية الضامن الرئيسي لقوى الثورة والمعارضة في مسار اللجنة الدستورية وتستطيع التأثير والضغط عليها، وبالنسبة لروسيا فإن مسار اللجنة الدستورية يمثّل مكسباً إستراتيجياً مهماً تسعى للحفاظ عليه وقطف ثماره، وهي بحاجة إلى الشريك التركي فيه؛ مما يدفعها لمراعاة نسبية لمصالح الأتراك.

وفي سياق العلاقات الروسية التركية كذلك فإن العام الماضي شهد توترات بين الطرفين خارج الملف السوري، في كل من ليبيا وفي الصراع على إقليم "قره باغ" بين أرمينيا وأذربيجان، لم يخلُ من رسائل متبادلة وجَّهها الطرفان في مناسبات مختلفة؛ فقد أوقف الدعم التركي لحكومة الوفاق في ليبيا تقدم قوات حفتر، ثم أسهم بعد ذلك في تحرير قاعدة الوطية وتكبيد قوات "حفتر" خسائر كبيرة أوقفت العمليات القتالية، وأجلست الجميع إلى طاولة المفاوضات.

---

[34] قبيل معركة "غصن الزيتون" التي سيطرت فيها القوات التركية على مدينة عفرين ونواحيها تحدثت وسائل إعلام تابعة لكل من "قسد" ونظام الأسد عن إرسال قوات موالية للنظام إلى المدينة للدفاع عنها إلى جانب "قسد"؛ فهددت تركيا باستهداف هذه القوات، وحذرت من مغبة دخولها المنطقة، ثم قامت بالفعل باستهداف بعضها بعد دخولها المدينة دون غطاء روسي عسكري وسياسي. تركيا تقصف قوات موالية للنظام السوري بعد دخولها منطقة عفرين، DW، 2018/2/20.

[35] تعرضت الميلشيات الإيرانية و"حزب الله" تحديداً لخسائر كبيرة على محاور سراقب وريف إدلب الشرقي بعد استهدافها من قبل الطائرات المسيرة التركية، دفعت "حزب الله" لطلب وساطة إيرانية – لبنانية لدى الحكومة التركية لوقف المعارك والسماح للحزب بسحب جثث قتلاه، بحسب ما أوردت مواقع لبنانية. للمزيد: موقع لبناني: "حزب الله" طلب وساطة لبنانية إيرانية مع تركيا لتأمين انسحابه من إدلب وسحب قتلاه، 2020/3/1، شبكة شام.

[36] نشر معهد دراسات الحرب دراسة بحثَ فيها عن إمكانية قيام روسيا بنشر قوات برية في سوريا لزيادة الضغط على تركيا، أو للمشاركة الفعلية في القتال إلى جانب قوات النظام. وأورد المركز بعض المؤشرات التي قد تدفع روسيا إلى الإقدام على خطوة كهذه، مما يعزز من فرص ربحها في سوريا. للمزيد: RUSSIA MAY DEPLOY CONVENTIONAL FORCES TO SYRIA، 2020/10/17، ISW.

[37] في سوريا نسقت تركيا مع روسيا في تقدمها في مناطق غصن الزيتون في عفرين شمال غرب سوريا، ثم في مناطق نبع السلام في شرق الفرات مؤخراً، وفي مناطق نبع السلام انتهت العمليات العسكرية إثر توافقات روسية تركية على تسيير دوريات مشتركة على الشريط الحدودي وإبعاد "قسد".

وفي "قره باغ" شكّل الدعم التركي الكبير لحكومة أذربيجان عاملاً مهماً في تحقيق نصر عسكري وسياسي على حساب أرمينيا، ولم يهدد هذا النصر مجال المصالح الإستراتيجية الخاصة بروسيا بطبيعة الحال؛ إلا أنه فرض اختراقاً تركياً في المشهدَين اضطرت روسيا للاعتراف به. من جهتها كانت روسيا توجّه الرسائل التي تريد إيصالها للحكومة التركية عبر الضغط في ملف إدلب السورية، ولعل أبرز الأمثلة على هذه الرسائل الروسية تجسّد في عملية قصف مواقع تابعة "لفيلق الشام" التابع لفصائل "الجيش الوطني" الذي تشرف عليه تركيا بشكل مباشر[38].

ضمن هذه المقاربات العسكرية والسياسية، سواءٌ داخل سوريا أو خارجها، تحرص روسيا على المحافظة على علاقة معقولة مع أنقرة تضمن لها تحقيق المكاسب الاستراتيجية، دون التصادم المباشر معها، وفي الوقت ذاته الذي تستخدم فيه أدوات الضغط ضد تركيا؛ ويبدو أن توقف المعارك في أذربيجان والهدوء النسبي في ليبيا قد ألقيا بظلالهما على الوضع في إدلب.

3) عقوبات "قيصر" وصعود داعش وتوتر العلاقة مع قسد ... ازدياد التحديات المنهكة للنظام:

يتوقف قرار استئناف العمليات العسكرية في إدلب مجدداً على القرار الروسي بشكل أساسي[39]؛ ومع ذلك فإن العوامل الميدانية والاقتصادية والانشغال بالتحديات الداخلية المختلفة تشكل عوائق بالنسبة لقوات النظام وميلشياته، وتنقص من جاهزيته العسكرية وقدرته على استئناف العمليات مجدداً حتى مع الغطاء الجوي الروسي، فضلاً عن أن يكون من دونه، مع ضغط نظام الأسد على موسكو لتنفيذ أجنداته[40].

وفي الحملة العسكرية الأخيرة تكبدت قوات النظام وحلفائه خسائر كبيرة بسبب التدخل العسكري التركي المباشر؛ حتى وإن نفت منابره الإعلامية ذلك[41]، لكنّ توقُّف المعارك العسكرية لم ينهِ تحديات النظام الأمنية والعسكرية أو نزيفه الاقتصادي؛ فقد شهدت الفترة السابقة وجود العديد من العوامل التي زادت من إضعاف بنية نظام الأسد ومؤسساته، مثل الآثار السياسية والاقتصادية لقانون العقوبات الأمريكية "قانون قيصر"، والتهديدات الأمنية

---

[38] اعتبر مصدر في وزارة الخارجية التركية في حديث لصحيفة "العربي الجديد" أن عملية القصف هذه كانت تعبيراً عن انزعاجها لعدم ترسيخ وقف إطلاق النار في "قره باغ"، وأن روسيا تحمّل تركيا مسؤولية التأزم هناك. للمزيد:
أمين العاصي، هل تمهد الضربة الروسية لـ"فيلق الشام" لتصعيد في إدلب؟ 2020/10/28، العربي الجديد.

[39] بطبيعة الحال تملك روسيا مفاتيح القرار العسكري والسياسي للنظام مع بقاء هوامش صغيرة للتحرك خارج الإرادة الروسية، تشير إلى ذلك معطيات المعارك السابقة والتصريحات المتفرقة؛ فبعد ستة شهور من وقف إطلاق النار خرج وزير الخارجية الروسي ليعلن عن عدم الحاجة لعمل عسكري جديد في إدلب وضرورة الالتزام بالحل السياسي، في تجاهلٍ لإرادة نظام الأسد وقراره. يُنظر:
وزير الخارجية الروسي: لا حاجة لعمل عسكري في إدلب، 2020/9/22، عنب بلدي.

[40] لم يُخفِ نظام الأسد معارضته لأي حلول غير عسكرية بما فيها الشكلية التي تقترحها روسيا، ومنها مسار أستانا، وفيما يتعلق بمصير إدلب على سبيل المثال: نقلت مصادر إعلامية عن رسالة نقلها وزير خارجية النظام إلى موسكو بأن "الأسد يريد استعجال الأمور إلى ترتيبات ضرورية للاستقرار في سورية"، بحسب المصادر التي أكدت أن "الطرفين اتفقا على انعدام اللغة المشتركة واستحالة التوصل الى صفقة مع تركيا حول إدلب حتى ولو بذلت موسكو قصارى جهدها، وبالتالي اتُفق على أن إدلب باتت وجع رأسٍ لا مناص من اقتلاعه منتصف عام 2021". مقداد نقل رسالتين إلى موسكو تتعلق بمصير الأسد وإدلب – 20- كانون الأول – 2020، السورية نت.

[41] مثّلت المقاطع والصور التي بثتها وزارة الدفاع التركية إحراجاً واضحاً لماكينة الإعلام الروسية والتابعة لنظام الأسد على حد سواء؛ فقد كذّبت تلك القنوات أخبار الخسائر التي أعلنت عنها الحكومة التركية في بداية الأمر، إلا أنها اضطرت بعد نشر وزارة الدفاع التركية صور القصف والاستهداف إلى الاعتراف ببعض الخسائر، كإسقاط الطائرات وبعض الخسائر في الأرواح.

جرّاء الصعود الجديد لخلايا "تنظيم الدولة" في البادية السورية، وأخيراً التوترات مع "قسد" في مناطق شرق الفرات.

في الوقت الذي كانت فيه المعارك على أشدّها في محافظة إدلب كانت الليرة السورية تسجل تدهوراً قياسياً في قيمتها لتسجل أرقاماً غير مسبوقة منتصف العام الماضي[42]، كما شهدت بنية النظام العميقة تصدعات كبيرة، تمثلت في الخلاف الحادّ الذي برز إلى العلن بين "رامي مخلوف" -واجهة النظام الاقتصادية- وأطراف أخرى في النظام كالتي تمثلها "أسماء الأسد"، وأظهر هذا الخلاف مأزق النظام الاقتصادي والصراعات الداخلية التي تحرّكها قوى دولية بحسب بعض المحللين[43]، إضافة إلى ذلك كانت آثار قانون العقوبات الأمريكية "قيصر" تلقي بظلالها على المشهد السوري، مما كرّس حالة الضعف الشديد وتضييق الخناق على موارد قوات النظام المالية، وبذلك يكون من الصعب الفصل بين الواقع الاقتصادي المتقهقر الذي يمرّ به النظام وقدرته على شنّ حملات عسكرية جديدة تحتاج إلى دعم مالي وموارد مختلفة.

وفي البادية السورية مثّلت عودة العمليات العسكرية الخاطفة بأسلوب حرب العصابات التي شنّتها خلايا داعش تحدّياً جديداً في سوريا[44]، لم تكن الخسائر التي تعرضت لها أرتال النظام وميليشياته مُنهِكة لكاهل نظام الأسد فحسب رغم تصاعد معدلاتها[45]، بل وجّهت كذلك من جهة أخرى ضربة قوية لسيناريو فرض الأمن وانتهاء الحرب التي تروّج له موسكو كواحد من أكبر انتصاراتها[46]، تمهيداً لعودة اللاجئين وقطف ثمار عقود إعادة الإعمار.

حاول نظام الأسد مستعيناً بسلاح الجو الروسي القيام بعدد من حملات التمشيط والقصف ضد معاقل خلايا تنظيم داعش في البادية لإيقاف نشاطها والقضاء عليها[47]؛ إلا أن تكتيكات التنظيم الجديدة وابتعاده عن أسلوب السيطرة على المدن والتمدد فيها حدّت من فاعلية حملات النظام وروسيا، وحافظت على وتيرة عملياته المتصاعدة، مما شكّل تهديداً أمنياً وعسكرياً حقيقياً تعاني منه قوات النظام وميليشياته، وقد يجرّه أيضاً إلى سحب قواته التي ترابط على بوابات إدلب باتجاه البادية، والتفرغ لعملية تطهير جيوب التنظيم هناك[48]، مما يعني تأجيلاً محتملاً لخيار الحسم العسكري في إدلب[49].

---

[42] "رويترز": انهيار الليرة السورية إلى أدنى مستوياتها أمام الدولار، 2020/6/4، روسيا اليوم.

[43] عماد أبو الروس، أزمة "رامي مخلوف".. خلاف روسي إيراني أم "تبرئة للأسد"؟ 2020/5/6، عربي 21.

[44] يمكن العودة للتقرير التالي للتعرف على سياقات بروز خلايا داعش مجدداً إلى الواجهة والمآلات المتوقعة منها:
التقرير التحليلي "مخاطر عودة "داعش" واستثمارات اللاعبين فيه"، 2020/6/5، مركز الحوار السوري.

[45] أمين العاصي- محمد علي، "داعش" 2020: نشاط في البادية السورية وتراجع في العراق، 2021/1/1، العربي الجديد.

[46] بوتين خلال لقائه الأسد عبر الفيديو: دحر الإرهاب في سوريا يفتح الباب أمام عودة اللاجئين، 2020/11/9، روسيا اليوم.

[47] وزارة الدفاع الروسية: الإرهاب يزداد وسط سوريا... وعملية الصحراء البيضاء تستمر، 2020/8/25، سبوتنيك عربي.

[48] منهل باريش، بعد مقتل 40 عنصرا من الفرقة الرابعة: هل سيجر تنظيم "الدولة" روسيا إلى الرمال المتحركة في البادية السورية؟ 2021/1/2، القدس العربي.

[49] المعارك بين النظام وداعش لا تنفي توظيف النظام وإيران لداعش بشكل استراتيجي، ينظر: الورقة البحثية "إيران والتنظيمات المتطرفة .... علاقات وتوافقات في مناطق الصراع" و الورقة البحثية "استثمار إيران في جماعات الغلوّ والتطرّف"، مركز الحوار السوري. وفي نفس الوقت، يمكن أن يستثمر في التنظيم مختلف الفاعلين بمن فيهم منافسو النظام السوري، يمكن التوسع في هذا المعنى بالعودة إلى تقرير "مخاطر عودة داعش" واستثمارات اللاعبين فيه"، مركز الحوار السوري.

وفي سياق منفصل لا يبدو أن الجهود الروسية فعّالة في رأب الصدع بين النظام السوري و"قسد" وإيقاف التوترات بينهما، وشهدت نهايات عام 2020م ومطلع العام الحالي تصاعداً في التوترات بين الطرفين أفضت إلى قيام "قسد" بمحاصرة المربع الأمني لنظام الأسد في مدينة القامشلي للضغط عليه بعد فشل الوساطات الروسية بين الطرفين[50]. وتؤدي هذه التوترات بالمحصلة إلى انشغال نسبي لنظام الأسد وروسيا بعملية الصراع الدائرة هناك[51]، خاصة أن "قسد" هي المصدر الأساسي لمناطق النظام السوري من الموارد النفطية التي تعاني شحّاً فيها، سواء بسبب التوترات مع "قسد" أو بسبب قيام "داعش" بمهاجمة القوافل التي تنقل النفط إلى مناطق النظام السوري، ويضاف إلى ذلك تأثير أزمة كوفيد 19.

مع ذلك لا يمكن إغفال استمرار التصعيد الروسي بالقصف الجوي والخروقات المتعددة لقوات النظام؛ وهو ما يُنبئ باستمرار المحرّكات ذاتها التي أدت إلى انهيار الاتفاقات السابقة، وهنا لابد من وقفة مع أحد أبرز الذرائع التي تتذرع بها موسكو عند تجديد حملاتها، وهي معضلة "الإرهاب" ووجود "هيئة تحرير الشام".

معضلة الإرهاب و"هيئة تحرير الشام":

مثَّلَ وجود "هيئة تحرير الشام: هتش" -فرع القاعدة في سوريا سابقاً- و"الجماعات الجهادية" الأخرى المرتبطة بالقاعدة مثل "حرّاس الدين" وغيرهم من "الجهاديين" الذريعة الروسية الأولى لفتح المزيد من العمليات العسكرية على محافظة إدلب، ومنذ اتفاق خفض التصعيد 2017م ثم سوتشي 2018م كانت الاتفاقات تستثني بشكل مباشر "هيئة تحرير الشام" و"الجماعات الجهادية" الأخرى، ليشكل هذا الاستثناء البوابة التي تنقض منها تلك الاتفاقات[52].

بدأت مسيرة "التحولات" التي خاضتها "هتش" منذ إعلان انفصالها عن القاعدة، ثم التحالف مع فصائل محلية، والانتقال بعد ذلك إلى مساحة الحوكمة والإدارة عبر بوابة "حكومة الإنقاذ"، في أثناء ذلك أظهرت "هتش" تخلّيها عن أدبيات مؤسسة لعقلية "الجهاد العالمي"، وأظهرت انقلاباً على بعض رموزه[53]؛ الأمر الذي انعكس على تغيرات في الخطاب والسلوك والشكل[54].

---

[50] هبة محمد، بعد فشل الوساطة الروسية: «قسد» تحاصر المربعات الأمنية للنظام السوري وتزيد الضغوط عليه في الحسكة، 2021/1/20، القدس العربي.

[51] يدور هذا الصراع حول عملية "الابتزاز" التي تقوم بها روسيا والنظام ضد قوات "قسد"، بهدف إفساح المجال لدخول قوات النظام والشرطة الروسية التركية إلى مدينة "عين عيسى" والتمركز فيها على غرار مدينة القامشلي؛ وإلا رفع اليد عن المدينة، وبالتالي البقاء تحت احتمالية تعرضها لعملية عسكرية من قبل القوات التركية والجيش الوطني المساند لها، وهو ما ترفضه "قسد" وتحاول الالتفاف عليه.

[52] وقد تكرر هذا في البيان الأخير لاجتماع أستانا 15، البيان المشترك الصادر عن الجولة الـ15 للمفاوضات حول سوريا بـ"صيغة أستانا"، 17 شباط 2021، روسيا اليوم.

[53] بعد اعتماده مرجعية وتدريس مناهجه.. "تحرير الشام" تنقلب على "المقدسي"، 2020/10/11، عنب بلدي.

[54] تناول كثير من مراكز الأبحاث والمحللين هذه التغيرات وتم رصدها على نطاق واسع، نكتفي هنا بالإحالة إلى بعض الأوراق والدراسات المهمة حول الموضوع: المقال التحليلي "قراءة في بيان "هيئة تحرير الشام" الأخير حول اتفاق موسكو"، 2020/3/13، مركز الحوار السوري.
المقال التحليلي "الجولاني، من رحم "داعش" إلى "قائد ثوري شعبي"؟"، 2020/8/12، مركز الحوار السوري.
المقال التحليلي "تغير في المواقف، أم تقية وازدواجية بين الخطاب والفكر؟ قراءة في تسجيل مسرب لقيادي في "هيئة تحرير الشام""، 2020/4/2، مركز الحوار السوري.

تم التعبير عن هذه التوجهات الجديدة نحو الانفتاح الخارجي والانتقال إلى شكل "الفصيل الإسلامي المحلي" بطرق مختلفة؛ فقد عبّر عنها من ناحية الخطاب الإعلامي - من خلال منابر غربية وعالمية - قائدها "أبو محمد الجولاني"[55]، وكذلك شرعيها العام "أبو عبد الله الشامي"[56]، إضافة إلى التغير في شكل ومضمون البيانات الرسمية التي تصدر عنها في التعليق على حوادث مختلفة[57].

ويرى البعض أن السلوك الأهم الذي دلّل على التغيرات التي طرأت على سلوك "هيئة تحرير الشام" برز في توجهاتها نحو قتال وتفكيك "رفقاء الأمس" من "الجهاديين" المنتمين إلى القاعدة[58]، وجاءت هذه التوجهات ترجمةً لامتثال "هتش" للتفاهمات الروسية الإيرانية بعد مذكرة موسكو، وتأكيداً لرغبتها في التموضع بصفة الشريك الأمثل القادر على ضبط الأوضاع وتنفيذ الاتفاقيات وضمان المصالح الإقليمية في إدلب، ضمن مساعيها للخروج من "قائمة الإرهاب" وحجز مقعد في مسار الحل السياسي في سوريا.

لا تهتم موسكو كثيراً بهذا السلوك الجديد الذي تبديه "هيئة تحرير الشام"، وتستمر في حملتها الدعائية التي تلصق تهمة الإرهاب بها، في اتهامات متكررة باستهداف قاعدة "حميميم الجوية" وتنفيذ هجمات كيماوية، ومؤخراً اتهمتها بتدريب مقاتلين وإرسالهم لتنفيذ عمليات هجومية داخل الاتحاد الروسي[59].

عملياً على الأرض تتعاون "هتش" مع الدوريات التركية – الروسية، وتقدم نفسها كضامن محلي لحفظ الأمن وكبح جماح "الجهاديين" الذين انفرط عقدهم في إدلب.

ورغم الجدل الحاصل حول براغماتية وتكتيكية التغيرات التي تقوم بها "هتش"؛ إلا أن دراسات أكاديمية و قنوات خلفية لجهات دولية باتت تتحدث عن جدّية هذه التحولات[60]، وعن إمكانية اختبارها من قبل الأطراف الدولية إذا ما قبلت تنفيذ بعض الأمور؛ مثل استبدال بعض الرموز المتشددة وإبعادها، والالتزام بالعمل المسلح داخل الحدود المحلية، والانفتاح على المؤسسات المدنية وغيرها من الشروط[61]، وذلك فيما إذا أرادت هذه الدول تجنب مأساة

[55] العامل الجهادي في إدلب السورية: حديث مع أبو محمد الجولاني، 2020/2/20، مجموعة أزمات.

[56] شرعي تحرير الشام لصحيفة سويسرية: لا نشكل خطراً ونحتاج لدعم دولي، 2020/9/5، تلفزيون سوريا.

[57] المقال التحليلي "قراءة في بيان "هيئة تحرير الشام" الأخير حول اتفاق موسكو"، 2020/3/13، مركز الحوار السوري.

[58] المقال التحليلي "نحو قراءة أولية في التصعيد بين "هيئة تحرير الشام" وغرفة "فاثبتوا" "، 2020/7/27، مركز الحوار السوري.

[59] مصدر: إرهابيون من "تحرير الشام" يدربون مسلحين على تنفيذ هجمات داخل روسيا، 2021/2/11، روسيا اليوم.

[60] In Syria's Idlib, Washington's Chance to Reimagine Counter-terrorism - International Crisis Group. DREVON, Jerome; HAENNI, Patrick, How global Jihad relocalises and where it leads: the case of HTS, the former AQ franchise in Syria, European university institute.

[61] في إدلب السورية، فرصة واشنطن لإعادة تصوّر مكافحة الإرهاب، 2021/2/3، مجموعة أزمات.

إنسانية جديدة في إدلب؛ إذ إن رفع التصنيف عن "هتش" وإدراجها ضمن مسارات الحل السياسي في سوريا[62] بعد التأكد من صدق تحولها يسهم في دوام وقف إطلاق النار، وسحب الذرائع التي تتذرع بها روسيا لمهاجمة المنطقة[63].

خاتمة:

شكّل الوجود العسكري التركي في إدلب مع إرساء قواعد اشتباك عملية "درع الربيع" عاملاً أساسياً في الاستمرار النسبي لوقف إطلاق النار، ورادعاً مهماً ضد قوات نظام الأسد وداعميه الروس، كما تمثل عوامل التفاهم الروسية التركية داخل سوريا وخارجها عوامل مهمة في استمرار وقف إطلاق النار؛ حيث تنعكس التوترات في الملفات المختلفة على التصعيد في إدلب، بما يتسق في الوقت ذاته مع الرغبة الروسية في اجتذاب تركيا إليها وعدم التصادم المباشر معها، إلى جانب العوامل الأخرى المختلفة الأقل تأثيراً، كالتضييق الحاصل على النظام السوري بسبب العقوبات وهجمات تنظيم داعش في البادية.

مع ذلك يستمر وجود العوامل ذاتها التي أجهضت الاتفاقات السابقة، ومنها ملفات "هيئة تحرير الشام" والإرهاب، وهي الملفات التي تتذرع بها روسيا بشكل دائم؛ لذلك تبدو فرصة استمرار الاتفاق رغم التصعيد الجوي الروسي مرجَّحة في مسار قلق ما لم تطرأ تغيرات كبيرة على محرّكات العلاقات الروسية التركية في الملف السوري أو غيره من الملفات، خاصة مع الإشارات الأولية التي أبدتها إدارة بايدن من رغبتها في التعاون مع تركيا في الملف السوري[64]، وإحياء الخارجية الأمريكية ذكرى الجنود الأتراك[65]؛ مما يؤشر لإمكانية تطوير التنسيق التركي الأمريكي في ملف إدلب والشمال السوري عموماً. ومع ذلك يبقى احتمال تجدُّد الحملات البرية قائماً على المدى الطويل، الأمر الذي يوجب العمل بالوسائل كافة على ردع الروس وقوات نظام الأسد.

ولا يبدو أن قوى الثورة والمعارضة تمتلك الكثير من الأوراق التي من الممكن أن تستثمرها في الدفع باتجاه استمرار وقف إطلاق النار، خاصة فيما يتعلق بالوجود العسكري التركي في إدلب أو التفاهمات الروسية التركية في مختلف الملفات، مع ذلك يمكن لقوى الثورة والمعارضة أن تسهم في تأكيد شرعية الوجود العسكري التركي، مع العمل

---

[62] **تشكل هذه المعضلة نقطة إشكالية ذات حساسية عالية داخل صفوف قوى الثورة والمعارضة؛ إذ إن الدور التخريبي الذي لعبته "هيئة تحرير الشام" منذ انطلاقها تحت مسمى "جبهة النصرة" واعتداءاتها المتكررة على فصائل الثورة السورية لا يمكن تجاوزه بسهولة، كما أن ممارسات "هتش" الأمنية والعسكرية التي أضرّت بمو اقف الثورة السورية ما زالت قائمة، ولا تزال الرموز القديمة التي لعبت تلك الأدوار المعادية لفصائل الثورة السورية حاضرة داخل بنية "هتش"؛ لذلك يتخوف الكثيرون من أي خطوة نحو تطبيع العلاقة مع "هيئة تحرير الشام" باعتبارها تحمل مخاطرة كبيرة.**

[63] تجدر الإشارة هنا إلى التصريحات الأخيرة التي أطلقها "جيمس جيفري" المبعوث الامريكي السابق إلى سوريا على إحدى القنوات التركية؛ فقد قارنَ بين تعامل تركيا مع "هتش" وتعامل الولايات المتحدة الأمريكية مع "قسد"، في مقارنة يمكن قراءتها كإشارة إلى أن على أنقرة القبول بتعاون الولايات المتحدة الامريكية مع "قسد" فيما إذا أرادت تركيا من المجتمع الدولي رفع التصنيف عن "هتش".

Eski ABD Suriye Özel Temsilcisi Jeffrey, T24'e konuştu: ABD Dışişleri'nin PKK açıklaması aptalca, ama hatayı düzeltmeleri iyi – T24.

[64] إدارة بايدن تريد العمل مع تركيا بسوريا لتحقيق المصالح المشتركة – 3 آذار 2021، عربي 21.

[65] الخارجية الأمريكية تحيي ذكرى شهداء الجنود الأتراك في إدلب – 2 آذار 2021، وكالة الأناضول.

والضغط لدعمه وتغطيته دولياً، بما يردع روسيا عن اعتبار مناطق النفوذ التركي خاصرة رخوة للتمدد[66]، كما يمكن لقوى الثورة والمعارضة الإسهام البنَّاء بالمشاركة في النقاشات التي بدأت في الأروقة حول التعامل مع ملف "هيئة تحرير الشام"، بحيث تضع قوى الثورة والمعارضة مطالبها وشروطها على الطاولة، بما يؤدي إلى سحب ذريعة موسكو المتعلقة بوجود التنظيمات الإرهابية، ولكن في الوقت نفسه بما يؤدي أيضاً إلى التخلص من ممارسات التطرُّف والإقصاء، وإفساح الفرصة للانتقال إلى ممارسات الحوكمة الرشيدة.

[66] يلاحظ هنا كما ذكرنا في هامش سابق أن الروس لا يستطيعون التمدد في المناطق الشرقية، على الرغم من أنها أكثر أهمية؛ لكونها تخضع للحماية الأمريكية، وهذا يؤكد أهمية الدعم الأمريكي لتركيا في مناطق نفوذها في الشمال السوري عموماً، ويعيد إلى الأذهان أهمية الفكرة التي تحدثت عنها تركيا مراراً سابقاً، وهي قضية المنطقة الآمنة، والتي تستلزم جهوداً ودعماً دولياً لتركيا في المنطقة، خاصة الدعم الأمريكي.